بسم الله الرحمن الرحيم

UMM AL QURA UNIVERSITY

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

تعريف

الجهاد ومجالاته

الأستاذ

عبد الرحمن حبنكة الميداني

تعريف الجهاد

الجهاد لغة : كالمجاهدة ، تقول ، جاهد يجاهد مجاهدة وجهاداً أي : بذل جهداً فيه معنى المغالبة أو المنافسة لمعارض يشارك ببذل الجهد ، مغالباً ، أو منافساً ، أو مقاوماً صادّاً .

هذا ما تدلّ عليه صيغة : (فاعل يفاعل مفاعلة وفعالاً) كقاتل يقاتل مقاتلة وقتالاً . ففي دلالة الصيغة معنى المشاركة على سبيل المغالبة أو المنافسة أو بذل الجهد من جهة والمقاومة له من جهة أخرى .

وفي الجهاد على هذا المعنى يبذل عادةً جهد زائد ، وقد يطلق الجهاد ويراد منه مجرّد بذل الجهد الزائد ، ولو لم يكن في مقابله مشارك مغالب أو منافس أو مقاوم .

والجهاد في سبيل الله : تعبير داخل في عموم المعنى اللّغوي إلاّ أنّ له قيداً عامّاً ، هو أن يكون في سبيل الله وابتغاء مرضاته ، وقيوداً تفصيلية لكلّ نوع من أنواع الجهاد ، وهذه القيود مبينة في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وفيما استنبطه علماء المسلمين ، وفقهاؤهم .

وسبيل الله : هو دينه ، وصراطه الذي رسمه لعباده حتى يسيروا فيه ، ويدخل في ذلك : أحكام العقائد ، وأحكام العبادات ، وأحكام المعاملات والأخلاق والآداب ، والنظم ، وسائر أحكام الشريعة الربّانية للناس .

وسبيل الله أيضاً ابتغاء مرضاته ، في اتباع أوامره واجتناب نواهيه ، والتقيد بأحكام شريعته ، والوقوف عند حدوده .

المراد من الجهاد في سبيل :

من استعراض النصوص القرآنية المشتملة على مادة : « جاهد يجاهد

مجاهدة وجهاداً » يتبيّن لنا أنّ المراد من الجهاد في سبيل الله : أن يبذل المؤمن المسلم في سبيل الله ممّا يملك من جهدٍ ، أو طاقة ، أو مالٍ ، أو أيّ شيء ذي نفع أو ذي تأثير ما ، سواءٌ أكان ذلك من نفسه ، أو من ماله ، أو من أي شيءٍ يخصّه ، أو من أيّ شيء له عليه سلطة ما .

ويكون هذا البذل في سبيل الله حقاً ، حين يكون بهدف نشر دين الله ، والدعوة إليه ، وتبليغه للناس ، أو تأليف القلوب عليه، أو نصرته وتأييده ، أو الدفاع عنه ، أو إعلاء كلمة الله في الأرض ، أو إقامة شريعة الله ومنهاجه الذي رسمه لعباده وحدّد حدوده ، مع ابتغاء رضوان الله في كلّ ذلك .

(٢)
مجالات الجهاد في سبيل الله

من التعريف السابق ، يتبين لنا أنه يدخل في الجهاد في سبيل الله ، كلُّ مجالات البذل التالية وأشباهها ، من كلّ مأذون شرعاً ببذله :

الأول : بذل المال كثيراً كان أو قليلاً ، في سبيل الله وابتغاء مرضاته ، لتحقيق هدف من الأهداف الآنفة الذكر .

الثاني : بذل طاقة الفكر في البحث والتأمل ، لنصرة دين الله ، وشرح آيات كتاب الله ، وإيضاح تعاليمه ، واستنباط الأحكام الشرعية من مصادر التشريع ، والتأمل والدراسة والبحث لمعرفة الأدلّة العقلية والتجريبيّة المؤيّدة للحق الذي جاء به الدين ، وللتعرّف على الخطط الحكيمة للدعوة إلى الله ، والجدال بالتي هي أحسن ، ووضع خطط السلم ، وخطط الحرب الدفاعية والهجومية ، واستنباط الأفكار اللازمة لإعداد القوى المتفوقة على قوىٰ أعداء الإسلام ، وغير ذلك من الأعمال الفكرية التي تخدم بالحق قضية دين الله لعباده ، ورسالة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم للناس أجمعين .

ونحو ذلك ممّا يخدم قضية الدين وقضايا المسلمين مع ابتغاء رضوان الله عزّ وجلّ .

الثالث : بذل قدرات اللّسان في البيان النافع المؤثر ، لنشر دين الله ، وتبليغه للناس ، والدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفي التلطف بالناس لتأليف قلوبهم على الاسلام وجذبهم إليه ، واستخدام الأدب الرفيع والكلام المعسول للتأثير على النفوس والأفكار في مجال الدعوة إلى الله ،وفي ضبط اللّسان وكفّه عمّا يؤذي وينفّر من المسلمين ومن الإسلام .

ومن الجهاد في مجال اللّسان الصمت أحياناً ، حين يكون الصمت واجباً ، والكلام ضارّاً ، ويكون هذا من الجهاد ، باعتبار أنّ ضبط اللّسان أحياناً لا يكون إلاّ ببذل جهد نفسي كبير ، ويتطلّب قوة إرادة فائقة ، ولعلّ ضبط اللّسان عند الثرثار أشدُّ عليه من كلام يجرُّه إلى حتفه .

ونحو ذلك مما يخدم قضية الدين وقضايا المسلمين مع ابتغاء رضوان الله عزّ وجل .

الرابع : بذل قدرات الكتابة والتأليف ، في كتابة الموضوعات الإسلامية ، ذات النفع تعليما أو إقناعاً ، أو تذكيراً ، أو توجيهاً ، أو موعظة حسنة ، وفي التأليف ، والتصنيف ، والترجمة ، والنشر ، لتوجيه الناس وتعريفهم بالحقّ ، ودعوتهم إلى دين الله ، والتقيد بأحكام شريعته ، ورفع لواء صراطه المستقيم ، وإقامة الحكم الإسلامي في الأرض ، ونحو ذلك مما يخدم قضية الدين وقضايا المسلمين مع ابتغاء رضوان الله .

الخامس : بذل حركة الجسد ، في المشي ، والسعي ، والسفر ، والتنقل في الأرض ، وغير ذلك من حركات ، لخدمة الأهداف السابقة

نفسها ، سواء أكان ذلك بطريقة مباشرة ، أو بجمع المال من الباذلين ، أو بخدمة الدعاة إلى الله من المسلمين الأكفاء للدعوة ، أو بدعوة الناس لحضور مجالسهم ، والاستماع إلى كلمات الحق ، أو بمساعدة أي عامل يخدم قضية من قضايا الدين أو قضايا المسلمين ، مع ابتغاء مرضاة الله عزّ وجلّ .

السادس : التضحية بشهوات النفس ولذاتها وراحتها ، أو لذات الجسد وشهواته وراحته ، للانصراف لخدمة قضية من قضايا الاسلام ، ومصالح الأمّة المسلمة ، مع ابتغاء رضوان الله عز وجل .

السابع : الاجتهاد في إعداد المستطاع من القوى المادّية والمعنوية ، والخطط اللازمة لذلك ، أو المساعدة في عمل يهدف إلى هذه الغاية ، بأي لون من ألوان المساعدة ، مع ابتغاء رضوان الله عزّ وجلّ .

الثامن : التضحية بالحياة كلّها ، إذا اقتضى أمر الدين ذلك ، وصار ما يُجْنَىٰ من نفع للإسلام أو للمسلمين ، أعظم من حياة الفرد الذي يضحّي بنفسه ، ولهذه التضحية بالحياة صور كثيرة ، منها الصور التالية :

أ ـ كلمة حق تقال عند سلطان جائر ، فيغضب السلطان ، فيقتل قائلها .

ونفع مثل هذه التضحية عظيم جداً ، في كلّ وقت ، مهما كان الضغط على الاسلام شديداً ، ومهما كانت قوة المسلمين ضعيفة ، وهذا النفع يبرز في انتشار فكرة الحق ، وامتدادها في الجماهير ، لأنّها تنزلق على أسباب عطفهم عليه إذ قُتل مظلوماً ، فتدخل إلى قلوبهم وهم لا يشعرون .

وقد ضرب الرسول صلى الله عليه وسلم لنا مثلاً لهذه التضحية قصة غلام أصحاب الأخدود ، والأمثلة من التاريخ عليها كثيرة جدّاً ، وفي كلّ وقت كانت سبباً في انتشار فكرة صاحب التضحية ، ومُنِي الظالم الطاغي الباغي بعكس ما

كان يريد ، لقد كان يريد بقتل الداعي إلى الحق قتل كلمة الحق ، فإذا بالداعي يُقتل ، ولكن كلمة الحقّ تحيا في قلوب الجماهير ، وتتوالد وتتكاثر وتنتشر ، ويكثر أنصارها والمؤيدون لها والمؤمنون بها .

حتى التضحية من أجل المذهب الباطل قد يكون لها بعض هذا الأثر في الجماهير .

ب ـ الدخول في صفوف الأعداء على سبيل التجسس ، لمعرفة ما لديهم من كيد ضدّ الاسلام أو المسلمين ، فإذا اكتشف أمره فقتل كان شهيداً مجاهداً في سبيل الله ، بشرط أن يبتغي بعمله رضوان الله عزّ وجلّ .

جـ ـ المجابهة القتالية المأذون بها شرعاً ، حينما تدعو الدواعي لذلك ، وتتكافأ القوى إجمالاً ، وتحين الفرصة المواتية ، ويغلب على ظنّ القيادة الإسلامية المفوّضة بالبيعة الشرعية ، وعلى ظنّ أهل مشورتها ، إمكان النصر ، بالنظر إلى الأسباب المادية والمعنوية التي يملك الناس إعدادها .

أمّا الأسباب الغيبية فأمرها متروك إلى الله ، ويجلبها صدق التوكّل على الله ، والاستغفار والدعاء ، والتضرع ،وإخلاص النية لله ، ويمد الله بها بالمقدار الذي تقتضيه حكمته عزّ وجلّ .

(٣)
استعراض النصوص القرآنية في الجهاد

أولاً : في العهد المكّي أنزل الله في الجهاد النصوص التالية مرتبة وفق مراحل التنزيل :

١ ـ أول نصوص الجهاد نزل في أواسط المرحلة المكية أو قبلها ، وهو قول الله عزّ وجل في سورة (الفرقان ٢٥) خطاباً للرسول صلى الله عليه وسلم

ثم للمسلمين من بعده ، في معرض الحديث عن القرآن :

[ولقد صرّفناه بينهم ليذّكروا . فأبىٰ أكثر الناس إلاّ كفوراً (٥٠) ولو شئنا لبعثنا في كلّ قرية نذيراً (٥١) فلا تطع الكافرين . وجاهدهم به جهاداً كبيراً (٥٢)] .

ولقد صرّفناه بينهم ليذّكروا : أي ولقد صـرّفنا القـرآن بينهم ليتعظوا . وتصـريف القرآن تنـويع أسـاليب البيان فيـه ، وأساليب الـدعـوة إلى الحق ، وأسـاليب الجدال بـالتي هي أحسن ، وتنويـع ذكر الأمثـال والأشباه والنـظائر للاقناع بالحق ، وليقاس عليها ما لم يذكر في القرآن ، كمـا قال تعـالى في سورة (الاسراء ١٧) : [ولقد **صرّفنا في هذا القرآن ليذّكروا** وما يـزيدهم إلاّ نفوراً (٤١)]

وقال فيها أيضاً [ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كلّ مثل فأبى أكثر الناس الاّ كفوراً (٨٩)] . وكما قال تعالى في سورة (الكهف ١٨) : [**ولقـد صرّفنا في هذا القرآن** للنـاس من كلّ مثـل . وكان الإنسـان أكثر شيء جـدلاً (٥٤)] .

و (الكهف) نزلت بعد (الإسراء) .

فـدلّ التتابع في بيـان التنويـع في القـرآن لأسـاليب الإقنـاع والتـذكيـر والموعظة ، على تصاعد حال غير المستجيبين لدعوة الرسول ، من (نفـور) كما في آية الإسراء الأولى ٤١ إلى (كفور) كما في الآية الثانية من الإسـراء إلى (مكابرة جدلية) كما جاء في آية الكهف ، رغم كلّ ما جاء في القرآن من تصريف وتنويع في أساليب الدعوة .

ولكثير من المفسرين آراء أخرى في المراد من قوله تعالى (ولقد صرّفناه بينهم ليذّكروا) في سورة الفرقان ، التي نتدبـر النصّ منها ، إلاّ أنها جميعـاً

بعيدة عمّا تدلّ عليه السورة في النظرة الكلية إليها ، وعمّا يدلّ عليه موضـوع التصريف للقرآن الوارد في سور أخرى .

وقد أبان الله من أنواع تصريفه لأساليب الدعوة في القرآن تنويع الوعيد فيه ، فقال تعالى في سورة (طه ٢٠) :

[**وكذلك أنزلنا قرآناً عربيّاً وصرّفنا فيه من الوعيد لعلّهم يتقون أو يُحدثُ لهم ذكراً** (١١٣)] .

وأبان أيضاً تنويع الحجج ، فقال عزّ وجل في سورة (الأنعام ٦) :

[قل : أرأيتم إنْ أخذ الله سمعكم وأبصـاركم وختم على قلوبكم ، من إلّه غير الله يأتيكم به ؟ . **انـظر كيف نصرّف الآيـات ثمّ** هم يصدفـون (٤٦) قل : أرأيتكم إن أتاكم عذابُ الله بغتة أو جهرة ، هل يُهلَكُ إلّا القوم الظالمون (٤٧)] .

وبعد بيانات جدلية طويلة قال عزّ وجلّ أيضاً في السورة نفسها :

[قل : من ينجيكم من ظلمات البرّ والبحر تدعونه تضرّعاً وخُفيةً : لئن أنجانا من هذه لنكوننّ من الشاكرين ؟ (٦٣) قل : الله ينجيكم منها ومن كـلّ كرب ، ثم أنتم تشركون (٦٤) قل : هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ، أو من تحت أرجلكم أو يَلْبِسَكُمْ شِيعاً ، ويُذيق بعضكم بأس بعض . **انظر كيف نُصرِّف الآيات لعلّهم** يفقهون (٦٥)] .

يَلْبِسَكُمْ شيعاً : أي يخلطكم أحزاباً وفرقاً متنافرة متعادية متقاتلة .

ثم قال تعالى في السورة نفسها بعد عرض أدلة كثيرة على وجوده وعظيم صفاته ، ومنها علمه وحكمته وعدله وقدرته .

[قد جاءكم بصائر من ربكم ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمِيَ فعليهـا ،

وما أنا عليكم بحفيظ (١٠٤) وكذلك **نُصرّف الآيات** ، وليقولوا : دَرَسْت ، ولنبينَه لقومٍ يعلمون (١٠٥)] .

ولا تطع الكافرين : أي ولا تستجب لرغباتهم ومطالبهم المتعنّتة ، كقولهم الذي حكاه الله قبل هذا النص من سورة (الفرقان) نفسها بقوله تعالى :

[وقال الّذين كفروا : لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة . كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً (٣٢)] .

وكقولهم الذي حكاه الله فيها أيضاً :

[لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً (٧) أو يلقي إليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها] .

وجاهدهم به جهاداً كبيراً : أي وجاهد الكافرين بالقرآن جهاداً كبيراً .

ومجاهدة الكافرين بالقرآن ، لا تكون بحمل القرآن ومقاتلتهم به ، ولا تكون بمجرّد ترتيله وتلاوته ، ولا تكون بقراءته عليهم على سبيل الرقية ، ليكون شفاءً لهم من الكفر .

إنّما تكون باستخدام أدلته ، وأساليب بيانه ، وشرح حججه وجدليّاته ، والاستفادة من طرائق ترغيبه وترهيبه ، واتّباع منهجه في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن ، وعرض مفاهيمه ، مع اقتفاء حكمة الله التي تكشفها مراحل تنزيل القرآن .

وهذا الجهاد بالقرآن ، يجب أن يكون جهاداً كبيراً مستمراً ، ويجب على المؤمنين القيام به في كل حين ، وهو منهاج الدعوة إلى الله الذي لا ينقطع ما دام في الأرض مؤمنون وكافرون ، ولو مع قيام الجهاد بالقوى العسكرية المسلّحة بالحديد والنار ووجود الفرصة المتاحة لذلك .

فالجهاد بالفكر هو القاعدة ، وهو الأساس ، أمّا الجهاد بالأسلحة المادّية فضرورة يُوجبها واقع الصراع الذي يفرضه دعاة الباطل والضلال والطغاة والبغاة والمفسدون في الأرض ، وهو يشبه في الطبّ الأعمال الجراحية الخطيرة ، ويشبه في الدفاع المدني عمليات إطفاء الحريق ، ويشبه في الأمن الداخلي مكافحة اللصوص ، والمجرمين ، وقطاع الطرق ، والصائلين ، والبغاة .

وقبل الأمر بمجاهدة الكافرين بالقرآن جهاداً كبيراً ، نزل الأمر بالتذكير بالقرآن .

والتذكير بالقرآن نوع لطيف من أنواع الدعوة إلى الله ، وهذا يكون في أوائل مراحل الدعوة إلى الله ، بالنسبة إلى الفئة التي توجّه لها الدعوة ، كما نستفيد ذلك من مراحل التنزيل ، فقال الله عزّ وجلّ لرسوله في آخر سورة (ق ٣٤) بعد أمره بأن يصبر على ما يقولون :

﴿ نحن أعلم بما يقولون . وما أنت عليهم بجبّار . فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد (٤٥) ﴾ .

ولا بدّ أن نكون على بيّنة بأنّ خطاب الرسول هو خطاب لجميع المؤمنين ما لم يكن الأمر من خصائص الرسول صلى الله عليه وسلم بدليل خاصّ .

فخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم بأن ينذر بالقرآن ، وبأن يجاهد الكافرين به جهاداً كبيراً ، خطاب يعمّ جميع المؤمنين ، وهذا التكليف مستمرّ لم ينقطع ، ولن ينقطع ما دام في الأرض مؤمنون وكافرون ، ونزول الأمر بالقتال في المرحلة المدنية بعد هذه النصوص المكية ، لا يوقف العمل بمضامينها ولا استمرارية هذا العمل ، فالدعوةُ الى الله ، والجهادُ بها ، وبالقرآن ، هما القاعدة ، وهما الأساس ، وهما الوظيفة الدائمة ، والرسالة

المستمرّة للمسلمين ، فهم أمّة الدعوة إلى الله ، وهم أمّة تبليغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم الشهداء على الناس بهذا التبليغ يوم الدين .

* * *

٢ ـ ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة ﴿ لقمان (٣١) ﴾ :

﴿ ووصّينا الإنسان بوالديه ، حملته أمُّه وهناً على وهْنٍ ، وفصاله في عامين ، أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير (١٤) وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتّبع سبيل من أنابَ إليّ ، ثمّ إليّ مرجعكُم ، فأنبِّئكم بما كنتم تعملون (١٥) ﴾ .

فكشف هذا النصّ أعنف معركة جهادية على النفس الإنسانية ، لما فيها من صراع داخلي تشتبك به أقوىٰ العلاقات الإنسانية ، وأعظمها حقوقاً وواجبات ، إنّها معركة مجاهدة إيمانية بين الابن المؤمن ووالديه الكافرين ، اللّذين يجاهدانه على أن يترك دينه الحق ، ويشرك بالله ، ويعود إلى الضلالة والغيّ ، بعد الهداية والرشد .

ودلّ النصّ هنا على أن مجاهدتهما له مقرونة باستخدام سلطتهما عليه ، وتأثير نفوذهما الاجتماعي على سلوكه ، والإصرار عليه بأمرهما ونهيهما . دلّ على هذا قوله تعالى في النصّ : ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ فاستخدم كلمة (على) لما فيها من معنى الاستعلاء والتكليف واستخدام سلطة الأمر والنهي .

واكتفى النصّ في هذه المعركة الجهادية بين الابن المؤمن ووالديه الكافرين ، بتكليف المؤمن بأمرين :

الأمر الأول : عدم طاعة والديه الكافرين في دعوتهما له أن يشرك بالله .

الأمر الثاني : أن يصاحب والديه في الدنيا بما هو معروف في مصاحبة الوالدين ، فيرفق بهما ، ويؤدّي لهما حقوقهما من النفقة والخدمة ، والطاعة في غير معصية الله ، وهذا يقتضي عدم الإغلاظ عليهما في دعوتهما إلى الله .

ومن بدائع هذا النصّ ونظائره ، تمجيده لدلائل العلم والمعرفة الإنسانية ، في قضية هي من أصول الدين وبدهيّاته ، إذ قال عزّ وجلّ :

﴿ وإنْ جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ .

فأتى بقوله : ﴿ ما ليس لك به علم ﴾ مع أن أحداً لا يملك دليلاً علميّاً يثبت فيه لله شريكاً .

إذن : فالله يرضى لنا أن نتبع مناهجنا العلمية الصحيحة الصادقة ، ويُشعرنا بذلك حتى في أهمّ قضية من قضايا الدين ، التي هي من الحقائق الظاهرة ، ذات الأدلة القطعية البرهانية .

* * *

٣ ـ ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (النحل ١٦) :

﴿ ثمّ إنّ ربّك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا . إنّ ربّك من بعدها لغفور رحيم (١١٠) ﴾ .

نزلت هذه الآية بمناسبة الذين فتنوا في دينهم في مكة ، إذْ تعرّضوا لضغوط المشركين عليهم ، ولإيذائهم ، ومجاهدتهم لهم بالعنف حتى يرتدوا عن دينهم ، ويعودوا إلى الشرك بالله ، أو خافوا أن يتعرّضوا لمثل ذلك فكتموا إسلامهم ، وأسرّوه في أنفسهم ، وكانوا لا يملكون قوّة دفاع عن أنفسهم .

فكان من هؤلاء من ارتدّ ،كعبد الله بن أبي سرح[1] ، وكان منهم من قال

(١) وقد رجع إلى الاسلام بعد ذلك .

كلمة كفر تقيه ، وقلبه مطمئنّ بالإيمان ، كعمّار بن ياسر ، وكان منهم من أسلم واستخفى باسلامه ، فلم يظهره أمام قومه .

وهؤلاء قد دعاهم الله في هذه الآية إلى الهجرة ، لضعفهم عن مقاومة ضغط المشركين وأذاهم ، ثم إلى الجهاد في الثبات على الإيمان والدعوة إلى الله ، والصبر على المشقات التي يتعرّضون لها من أجل إيمانهم ، وفي هجرتهم ، وفي دعوتهم إلى الله ، ووعدهم سبحانه بأن يغفر لهم ما كان منهم من ضعف إرادة ، أو ضعف تحمّل ، ووعدهم بأن يشملهم برحمته .

فالمجاهدة هنا تبرز فيها معاني مقاومة ضغوط طغاة الكافرين ، على الضعفاء المؤمنين ، وتحمّلِ مشقاتِ الهجرة ، والغربة ، والدعوة إلى الله حيثما حلّوا وحيثما ارتحلوا .

***

٤ ـ ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ في أواخر العهد المكيّ قوله في آخر سورة (العنكبوت ٢٩) :

﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبُلَنا ، وإنّ الله لمع المحسنين (٦٩) ﴾ .

من الواضح أنّ الجهاد المراد في هذه الآية هو جهاد المقاومة لضغوط أعداء الاسلام من المشركين ، وجهاد الصبر ، وجهاد اتّخاذ السبلَ للهجرة والفرار بالدين .

وفي هذه الآية إشارة ضمنيّة للضعفاء الذين فُتنوا في دينهم ، أن يتّخذوا أيّ سبيل ، ليتخلّصوا بالهجرة من ضغوط الكافرين ذوي السلطان والجبروت في مكة ، فإذا فعلوا ذلك بإحسان وتصرّف حكيم ، هداهم الله إلى سُبُل

نَجاتهم وسلامتهم ، وإنّ الله لمع المحسنين ، أمّا الذين لا يُحسنون التّصرف ، فيتحرّكون لتحقيق غاياتهم تحركاً أهوج طائشاً ، ولا يتخذون الشروط السببيّة الملائمة ، فإنّ الله عزّ وجلّ لم يعدهم بأن يكون معهم .

ويقع كثير من المؤمنين السُّذّج في غلط فاحش حيال هذه الحقيقة ، فيسيئون التصرّف ، ولا يتخذون الشروط السببيّة الملائمة ، ويطالبون الله بأن يكون معهم حامياً وناصراً ، تصوّراً منهم أنّ الإحسان في العمل بمفهوم الدين قاصر على جوانب خاصة تتعلّق بالعبادات المحضة ، ولا ينطلقون مع الأبعاد الكاملة لقول الرسول ﷺ في تعريف الإحسان : « أنْ تعبد الله كأنّك تراه » .

فالله سبحانه وتعالى ، يعلّم المؤمنين في هذه الآية ، أن يكونوا محسنين في اتخاذ أسباب الخير ، ومنها الأسباب المناسبة للهجرة من بلدٍ يفتنون فيه بدينهم ، حتى يكون معهم ساتراً وحافظاً وناصراً .

وضرب الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك المثل الكامل في هذا الموضوع ، حين أذن الله له بالهجرة .

إن الله عزّ وجلّ يكون مع الذين يحسنون التصرف في أعمالهم ويتقنونها ، ولا يكون مع المتساهلين ولا الفوضويين ، ولا الذين لا يتقنون أعمالهم ، ولا يتخذون أفضل الوسائل لما يبتغون من خير .

وغير وارد فيما أرى تفسير السُّبُل في قول الله تعالى في هذه الآية : ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سُبُلنا﴾ بالسُّبُل الدينيّة . بل هي فيما أرى سُبُل سلامتهم ونجاتهم وخلاصهم من أعدائهم في الحياة الدنيا ، وسُبُل هجرة آمنة ، معها تأمين سُبُل الرزق والمعاش . وذلك لما يلي :

نحن نعلم من البيان القرآني أنّ سبيل الله في الدين واحدة غير متعدّدة ، وانّ الله عزّ وجلّ قد أمر في قضية الدين باتباع سبيله الواحدة غير المتعددة ،

فالنصوص التي تحدّثت عن منهج الله في الدين جاءت كلّها بلفظ المفرد لا الجمع .

كلُّ ما جاء في القرآن من ذلك بلفظ « الصراط » جاء مفرداً ، فصراط الله لم يأت مجموعاً مرّة واحدة ، وبلفظ « المنهاج » لم يأت إلّا مرة واحدة مفرداً ، وبلفظ « السبيل » نلاحظ أنّ كلّ النصوص التي يتضمن السياق أنّ المراد تعاليم الدين قد جاء اللفظ فيها بالافراد ، ولم يأت مجموعاً إلّا في موضوعات سبُل الأرض وسبُل الرزق ونحو ذلك ، وهي النصوص التالية :

١ ـ قول الله عزّ في سورة (النحل ١٦) .
﴿ وأوحى ربّك إلى النحل : أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر وممّا يعرشون (٦٨) ثمّ كلي من كلّ الثمرات ، فاسْلكي سُبُلَ ربِّكِ ذُلُلاً ﴾ .

٢ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل ١٦) أيضاً .
﴿ وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسُبُلاً لعلكم تهتدون (١٥) ﴾ .

٣ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (طه ٢٠) :
﴿ الذي جعل لكم الأرض مهداً ، وسلَك لكم فيها سُبُلاً . . . (٥٣) ﴾ .

٤ ـ وقوله عزّ وجل في سورة (الأنبياء ٢١) :
﴿ وجعل في الأرض رواسي أن تميد بهم ، وجعلْنا فيها فجاجاً سُبُلاً لعلّهم يهتدون (٣١) ﴾ .

٥ ـ وقوله عزّ وجلّ في سورة (الزخرف ٤٣) :
﴿ الذي جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سُبُلاً لعلكم تهتدون (١٠) ﴾ .

٦ ـ وقوله عزّ وجلّ في سورة (نوح ٧١) :
﴿ والله جعـل لكم الأرض بساطـاً (١٩) لتسلكوا منهـا سُبُلاً فجـاجـاً (٢٠) ﴾ .

يضـاف إلى ذلك أنّ الله عـزّ وجل أمـر باتبـاع سبيله ، ونهى عن اتّباع السُّبُـل ، لأنّها تتفـرّق بالنـاس عن سبيل الله ، فتقـذفهم الى المتاهـات ذات اليمين وذات الشمال . وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦) :

﴿ وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السُّبُل فتفرّق بكم عن سبيله ، ذلكم وصّاكم به لعلكم تتّقون (١٥٣) ﴾ .

فهذه الآية حاسمة في الموضوع ، وما أظنّ أنّ حجّة تستطيع أن تنهض بعد بيان هذه الآية .

ولم يبق لدينا إلّا ثـلاث آيات نستـطيع أن نخـرّجها وفق هـذه القاعـدة القرآنية .

الآية الأولى : آية (العنكبوت) التي نحن في صدد تدبّرها ، وقد ظهر لنا المراد منها بتوفيق الله .

والآية الثانية : هي قول الله عزّ وجل في سورة (المائدة ٥) :
﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين (١٥) يهدي به الله من اتّبع رضوانه سُبُلَ السَّلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم (١٦) ﴾ .

سُبُل السلام : أي طرق السلامة والنجاة في أمور دنياهم ، ولكيلا نفهم أنّها سُبُل في الـدين قال الله تعـالى في آخر الآيـة : ﴿ ويهديهم الى صـراط مستقيم ﴾ .

والآية الثالثة : هي قول الله عزّ وجل في سورة (إبراهيم ١٤) حكاية لمقالة الرسل لأقوامهم .

﴿ وما لنا ألّا نتوكّل على الله وقد هدَانا سُبُلنا ؟! ولنصْبِرَنَّ على ما اذيتمونا وعلى الله فليتوكّل المؤمنون (١٢) ﴾ .

هذه الآية تتحدّث عن أنواع الضغوط الآثمة الظالمة ، وأنواع الأذىٰ ، التي كان يتعرّض لها الرسُل من قبل الكافرين الطغاة من أقوامهم ، والتي جعلت الرسل عليهم السلام يعلنون توكّلهم على الله ، ويعلنون أنه لا يوجد أيّ داعٍ لليأس من النجاة من ظلم الكافرين لهم ، وقد هداهم الله سُبُلهم لتحقيق هذه النجاة ، فأمامهم الخروج من أرض الكفر والظلم إذا أذن الله لهم بذلك ، وقد دلّ على هذا الآية التالية لها ، وهي قول الله تعالى :

﴿ وقال الذين كفروا لرسُلهم : لنخرجنّكم من أرضنا ، أو لتعودُنَّ في ملتنا ، فأوحى إليهم ربُّهم لنُهلكَنَّ الظالمين (١٣) ولنُسْكِنَنَّكمُ الأرض من بعدهم . ذلك لمن خاف مقامي ، وخاف وعيد (١٤) ﴾ .

ويظهر بجلاء أنّ هذا النصّ من سورة (المائدة) ، يحكي قصة مشابهة تماماً ، لما جاء في آية (العنكبوت) التي نتدبّرها ، وقد ظهر أنّ المراد من السُبُل فيها سُبُل النجاة والسّلامة الدنيوية من إرهاب الكافرين أعداء الدّين .

وبهذا يكون الموضوع قد استجمع أطرافه كلّها ، وظهر المراد بتوفيق الله ، ومعونته .

* * *

٥ ـ وفي أوّل سورة (العنكبوت ٢٩) إحدى عشرة آية مدنية ، والسورة فيما عدا هذه الآيات مكية .

وهذه الآيات تحدّثت عن فتنة المؤمنين في دينهم ، فتابعت حركة الموضوع الذي جاء في سورة (النحل) والذي من أجله ألمح الله عزّ وجلّ للمفتونين في دينهم في الآية التي سبق شرحها من سورة (العنكبوت) بأن يجاهدوا جهاد الهجرة والصبر والتحمل ، وأن يحسنوا التصرف في ذلك ، ويتخذوا أحكم السبل والوسائل والأسباب ، ليكون الله معهم ساتراً وحامياً وناصراً ، وليهديهم سُبُلَ نجاتهم وسلامتهم .

فقال الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت ٢٩) :

﴿ ألم (١) أحسِب الناسُ أن يُتركوا أن يقولوا : آمنا ، وهم لا يُفتنون ؟ (٢) ولقد فتنا الّذين من قبلهم ، فليعلمَنّ الله الذين صدقوا وليعلَمَنَّ الكاذبين (٣) أمْ حَسِبَ الذين يعملون السّيئاتِ أن يسبقونا ؟ . ساء ما يحكمون (٤) من كان يرجو لقاء الله فإنّ أجل الله لآتٍ ، وهو السّميع العليم (٥) ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ، إنّ الله لغنيٌّ عن العالمين (٦) والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفِّرَنَّ عنهم سَيِّئاتهم ولنجزينَّهم أحسن الذي كانوا يعملون (٧) ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ، وإن جاهداك لتُشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، إلَيّ مرجعكم فأُنبّئكم بما كنتم تعملون (٨) والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنّهم في الصالحين (٩) ومن الناس من يقول : آمنّا بالله ، فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ، ولئن جاء نصر من ربّك ليقولُنّ : إنّا كُنّا معكم . أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين (١٠) وليَعلمنَّ الله الذين آمنوا وليعلَمَنَّ المنافقين (١١) ﴾ .

فبسطت هذه الآيات ما يتعلّق بفتنة الذين يقولون : آمنا ، صادقين في إيمانهم . إنهم يفتنون في دينهم من قبل أعداء الدين ، فيؤذونهم لأنّهم آمنوا ، ويوجهون ضدّهم الضغوط المتنوعة ، ليرتدوا عن الاسلام ، ويعودوا كافرين مشركين .

والفتنـة في الدين مصيبـة تتكرّر في المجتمعـات البشـريـة ، وهي من مظاهر الصراع الدائم بين الحقّ والباطل ، والخير والشرّ ، والإيمان والكفر .

والله عزّ وجلّ من سنّته أن لا يتدخل تدخُّلاً مباشراً لتغيير هـذه الظاهـرة المتكـرّرة في المجتمعات البشـرية ، لأنّ حكمتـه تعـالى تقتضي أن يمتحـن عبـاده ، حتى يعلم الذين صـدقوا في الانتمـاء الى الدين ، ويعلم الكـاذبين الذين حرّكتهم المطامع أو المخاوف الدنيـوية ، أو دفعتهم دوافـع عارضـة لا ثبات لها .

لكنّ قُوى الكافرين مهما عظمت وفاقت قـوة المؤمنين ، فهي لن تسبق قوة الله حين تقتضي حكمته أن ينصـر أوليـاءه الصادقين ، وينـزل بأسـه على الذين كفروا وفسقوا وطغوا في الأرض .

فعلى المؤمنين إذن : أن يجاهدوا ليؤكّدوا صدق إيمانهم ، والمجاهدة هنا في هذه المرحلة تكون بالصبر ، والثبات ، واتخاذ الوسائـل للخلاص من الفتنـة ، بالهجـرة إلى دار الإسلام التي أصبحت في المـدينـة آمنـة مـطمئنّـة للمؤمنين .

ونلاحظ أنّه بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وقيام دولة الإسلام فيها ، ضعفت نوعاً ما شوكة المشركين في مكة ، فصار ضغط الآباء على أبنائهم الذين يسلمون أقلّ ممّا كان عليه قبل ذلك ، لقد كان فيـه معنى الاستعلاء والقهر ، فـأنزل الله يـومئذٍ خـطاباً لـلابن المؤمن : ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ .

وكـانت وصية الله لـلابْنِ بهمـا في حـدود : ﴿وصـاحبهمـا في الـدنيـا معروفاً﴾ .

أما بعد أن قامت دولة الإسلام في المدينة فقد غدا ضغط الوالدين فيه معنى استخدام وسائل الحيلة والملاينة للاقناع والتحويل عن الإيمان برفق ، الأمر دلّ عليه قوله تعالى في النصّ المدني :

﴿ وإن جاهداك لتُشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ .

فاستخدم حرف (لـ) لا حرف (على) كما كان في النصّ المكي ، ففي هذا الموضع جاءت وصية الله للابن بوالديه ، بما هو فوق المصاحبة بالمعروف ، إذ جاءت بصيغة :

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حُسْناً ﴾ .

ولا بدّ أن نلاحظ أنّ الْحُسْنَ الذي أوصى الله به يفوق المصاحبة بالمعروف .

وأمّا الوالدان الموافقان في الدين الحقّ ، فقد أوصى الله الابن بالإحسان إليهما ، و (الإحسان) مرتبة أعلى من (الحسن) الذي هو مرتبة أعلى من (مصاحبتهما في الدنيا معروفاً) .

والوصية بالاحسان إلى الوالدين نجدها في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأحقاف ٤٦) :

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمّه كُرهاً ووضعته كُرهاً . وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ، حتى إذا بلغ أشدّه وبلغ أربعين سنة ، قال : ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأصلح لي في ذرّيتي ، إنّي تُبتُ إليك ، وإنّي من المسلمين (١٥) ﴾ .

ونلاحظ أيضاً في النصّ الذي نتدبّره من أوائل سورة (العنكبوت) أنّه قد تعرّض للّذين لا يثبتون حينما يفتنون في دينهم ، لأنّ إيمانهم لم يكن ذلك

الإيمان الصّادق الثابت الراسخ ، فإذا أوذوا من قبل طغاة الكافرين لأنّهم أسلموا ، ظنّوا بالله الظنون ، فقال تعالى في شأنهم :

﴿ ومن الناس من يقول : آمنا بالله . فاذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾ .

أي فهو بسبب ضعف إيمانه أو نفاقه يتّهم حكمة الله بتمكين الكافرين من تعذيبه ، ويلقي المسؤولية على القضاء والقدر .

وقد جاء التعليق القرآني على هذا الصنف من الناس بقوله تعالى :

﴿ أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين ﴾ .

أي : من صدق إيمان ، أو ضعفه الشديد ، أو كذبه .

إنّ من حكمة الله في تمكين الكافرين من إيذاء المؤمنين وتعذيبهم ، أن يكشف الصادقين في إيمانهم ، ويكشف المنافقين ، ويكشف من هم بين الفريقين السابقين من ضعفاء الايمان ، وبياناً لذلك قال الله عزّ وجل في آخر النصّ .

﴿ وليَعلمَنَّ الله الذين آمنوا ، وليَعلَمَنّ المنافقين ﴾ .

***

ثانياً : وفي العهد المدني أنزل الله عزّ وجلّ في الجهاد النصوص التالية مرتّبة وفق مراحل التنزيل :

١ ـ في أوّل سورة مدنيّة وهي سورة (البقرة ٢) أنزل الله تعالى بشأن الجهاد في سبيل الله قوله :

﴿ إنّ الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون

رحمة الله والله غفور رحيم (٢١٨) ﴾ .

هذه الآية أضافت إلى معنى الجهاد في أفكار المسلمين جهاد القتال في سبيل الله ، انسجاماً مع تصاعد العمل الإسلامي لبناء الأمة الإسلامية ونشر الإسلام في الأرض .

فصار الجهاد في سبيل الله يعني جهاد الدعوة إلى سبيل الله بكل وسائلها ، وعلى وفق منهج القرآن ، وجهاد الصبر والثبات ، وجهاد الهجرة في سبيل الله وإن أخذت الهجرة عنواناً مستقلاً ، وجهاد القتال في سبيل الله ، متى قامت دواعيه وتهيّأت وسائله ، وأذن به منهج الله للمؤمنين .

والدليل على إضافة معنى القتال في سبيل الله ، في عموم الجهاد في هذه الآية ، أنّها قد نزلت بعد آيات الأمر بمقاتلة المعتدين من السورة نفسها ، وهي قول الله عزّ وجلّ خطاباً للذين آمنوا :

﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، إنّ الله لا يحبّ المعتدين (١٩٠) واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ، والفتنة أشدّ من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتّى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين (١٩١) فإن انتهوا فإنّ الله غفور رحيم (١٩٢) وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن انتَهوْا فلا عدوان إلّا على الظالمين (١٩٣) الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتّقوا الله ، واعلموا أن الله مع المتّقين (١٩٤) وأنفقوا في سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، وأحسنوا إنّ الله يحبّ المحسنين (١٩٥) ﴾ .

فأمر الله عزّ وجلّ في النصّ المسلمين بقتال من يقاتلهم من الكافرين ،

ونهاهم عن الاعتداء .

وأبان سبحانه أنّ الإخراج من البيوت والأموال وبلد الوطن من أجل الدين ، هو بمثابة القتال الذي يؤذن معه بالقتال .

ونهىٰ عن القتال عند المسجد الحرام في مكة ، إلاّ إذا بدأ الكافرون بذلك .

وأبان أنّ الفتنة في الدين والإكراه على الكفر أشدّ من القتل ، فهي من الأمور التي يؤذن بالقتال لدفعها أو رفعها .

وحدّد غاية القتال بارتفاع الفتنة في الدّين والإكراه على الكفر .

وبيّن أنّ الزمان الذي يحرم فيه القتال ـ وهي الأشهر الحُرم ـ مثل المكان الذي يحرم فيه القتال ، فمن اعتدى بالقتال فيه جاز مقابلته بالمثل قصاصاً .

وأبان عزّ وجلّ واجب الإعداد للقتال قبل البدء به، وأبرز قيمة بذل المال لتحقيق هذه الغاية ، فقال تعالى : ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ﴾ . وكلٌّ خبير بالحروب يعلم بداهة أن أوّل خطوة من خطواتها ، البدءُ بجمع الأموال اللازمة لها ، ورصدُ الميزانية التي تقتضيها ، ولا يكون ذلك إلاّ بانفاق الأمّة لهذه الغاية ، ثم يكون التدريب وإعداد القوة اللازمة ، ورسم الخطط الحربية ، إلى غير ذلك من أمور .

وألجم الله العواطف الثائرة الغاضبة ، حتى لا تثور في غير جدوى بعد الإذن بالقتال ، وحتى لا تندفع برعونة ، قبل استكمال الإعداد الكافي لخوض المعركة ، فقال تعالى :

﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ .

فالأمر بالقتال مشروط باتخاذ أسبابه الكافية ، هذا ما يدلّ عليه النصّ ،

وهذا ما يقتضيه العقل ، وهو ما تثبته التجارب .

ولمّا كانت قضية الإعداد للحرب مهمة ليست من العبادات العادية التي يكفي فيها المقدار الأدنى ، وهو مقدار التقوى ، بل وينبغي لها الإتقان إلى درجة الإحسان ، قال الله عزّ وجلّ في آخر فقرات النص :

﴿ وأحسنوا إنّ الله يحبّ المحسنين ﴾ .

وأنزل الله عزّ وجل في سورة (البقرة) أيضاً ، بعد عدّة آيات من النصّ السابق قوله تعالى :

﴿ كتب عليكم القتال وهو كُرْهٌ لكم وعسىٰ أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم ، وعَسَىٰ أن تحبُّوا شيئاً وهو شرٌّ لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون (٢١٦) يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه ؟ . قل : قتال فيه كبير . وصدٌّ عن سبيل الله وكفر به والمسجدِ الحرام وإخْراجُ أهله منه أكبر عند الله . والفتنة أكبر من القتل . ولا يزالون يُقاتلونكم حتى يردّوكم عن دينكم إن استطاعوا . ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (٢١٧) ﴾ .

وعقب هذا النصّ أنزل الله قوله :

﴿ إنّ الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم (٢١٨) ﴾ .

فحين نفهم أنّ النصّ قد أضاف إلى مجالات الجهاد السابقة مجال القتال ، فإننا لا بدّ أن نفهم أنّ المجالات الأخرى للجهاد باقية ومستمرة ، ولكن أضيف إليها مجال القتال .

فهو إذن منذ الآن يدخل في حساب حاكم المسلمين ، فيقرّره إذا دعت

الحاجة القصوى إليه ، وكانت الاستعدادات لـه مكافئـة لاحتمالات النصـر ، وفق نظام الأسباب والمسبّبات .

* * *

٢ ـ ثمّ أنزل الله عزّ وجل في آخر سورة (الأنفال ٨) ثاني سورة مدنية ، قوله تعالى :

﴿ إنّ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيـل الله ، والّذين آوَوْا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ، والذين آمنوا ولم يُهاجروا ما لكم من ولا يَتهِم من شيءٍ حتّى يُهاجروا ، وإن استنصروكم في الدين فعليكُمُ النَّصـرُ ، إلاّ على قومٍ بينكم وبينهم ميثـاق . والله بما تعملون بصيـر (٧٢) والذين كفروا بعضهم أولياءُ بعض . إلاّ تفعلُوه تكن فتنةٌ في الأرض وفسادٌ كبير (٧٣) والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووْا ونصروا أولئك هم المؤمنـون حقاً ، لهم مغفـرة ورزق كريم (٧٤) والـذين آمنـوا من بعـدُ وهاجروا وجاهدوا معكم فـأولئك منكم ، وأولـوا الأرحام بعضُهم أولى ببعض في كتاب الله ، إنّ الله بكلّ شيء عليم (٧٥) ﴾

فجاء التركيز في هذا النص على قضيتي الجهاد بالأموال والأنفس ، بعد قضيّة الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام .

وقد عرفنا أن الجهاد بالأموال لإعداد القوة اللازمة سابق للجهاد بالأنفس في معارك القتال ، أمّا في غير معارك القتال وما أشبهها ، فإنّ الجهاد بالأنفس فكراً ، وجسداً ، ولساناً ، وقلماً ، قد يكون سابقاً للجهاد بالأموال ، ولا يَغِبْ عن تصوّرنا ما للجهاد بالأموال من قيمة عظيمة في كل الأعمال الإسلامية ، وأهمُّها الدعوة إلى الله ، ونشر دين الله ، وتبليغه للناس أجمعين ، وتعليم علوم الدين ، عن طريق المعلّمين والدعاة ، أو عن طريق مختلف وسائل

الإعلام ، وفي مقدمتها نشر الكتاب الإسلامي المناسب لمستويات القرّاء .

وفي هذا النص بيان لأحكام الموالاة بين المسلمين ، بحسب اختلاف الأحوال ، والأحكام التي اشتمل عليها النصّ تتلخص فيما يلي :

الحكم الأول : المهاجرون والأنصار الموجودون في دار الإسلام كتلة واحدة ، متآخون ، متناصرون ، متعاونون ، متساعدون ، متباذلون ، بعضهم أولياء بعض . فالموالاة بينهم تامّة ، تشمل التناصر ، والتآخي ، والتعاون ، والتساعد على تأمين مطالب الحياة ، وكلّ ما يدعم صلة الإخاء في جماعة واحدة .

فالمهاجرون قد جاهدوا بأموالهم وأنفسهم مع هجرتهم واغترابهم عن ديارهم ، والأنصار قد آوَوْا المهاجرين ونصروهم ، وبذلوا لهم من أموالهم ومن معوناتهم الجسدية ، وعاملوهم معاملة إخوانهم من النسب وأفضل .

دلّ على حكم الموالاة التامة بين عناصر هذا الفريق قول الله تعالى في النص :

﴿ إنّ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، والذين آوَوْا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ﴾ .

الحكم الثاني : ويوجد فريق آخر من المسلمين ، وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا في سبيل الله إلى دار الإسلام ، بل بقوا في دار الكفر .

فهؤلاء ليس بينهم وبين أهل دار الإسلام من المهاجرين والأنصار موالاة ، لانقطاع الصلة وتعذّر قيام موالاة بينهما ، إذ لا يملك كلّ من الفريقين الحرّية الكافية في أن يمدّ الفريق الآخر بالمناصرة الدائمة ، والمعونة والمساعدة المتشابكة في إخاء جماعي ، تبرز آثاره في الممارسات اليومية .

لكنّ هذا الفريق الذي آمن ولم يهاجر ، إذا أوذي في الله من أجل دينه ، وضغط عليه الطغاة الكافرون في بلد إقامته ، في أمر دينه ، وطلب النصرة من جماعة المسلمين أهل دار الإسلام ، فإنّ على جماعة المسلمين في دار الإسلام أن ينصروه في هذا الأمر ، بشرط ان لا يتعارض ذلك مع عهد خاص بين أهل دار الإسلام وأهل بلد هذا الفريق المستنصر .

وقد دلّ على هذا الحكم قول الله عزّ وجلّ في النص :

﴿ والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيءٍ حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر ، إلّا على قومٍ بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير ﴾ .

الحكم الثالث : لا موالاة بين الذين آمنوا والذين كفروا ، فالذين كفروا بعضهم أولياء بعض ، والانفصال في عناصر الولاء المتبادل قائم دائم بين المؤمنين والكافرين ، دلّ على هذا قول الله في النص : ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾ .

ولكنّ قطع الموالاة بين المؤمنين والكافرين لا يقتضي منع المؤمنين من أن يبرّوا الكافرين ويقسطوا إليهم ، إذا لم يُقاتلوهم في الدين ولم يخرجوهم من ديارهم ، بدليل قول الله عزّ وجلّ في سورة (الممتحنة ٦٠) :

﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم ، إنّ الله يحبّ المقسطين (٨) إنّما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم ، أن تولّوهم ، ومن يتولّهم فأولئك هم الظالمون (٩) ﴾ .

الحكم الرابع : من استدرك أمره من المؤمنين الذين لم يهاجروا إلى دار الإسلام فهاجر إلى دار الاسلام ، وجاهد مع المجاهدين ، فإنّ أحكام

الفريق الأول تُجرىٰ عليه ، فتكون له حقوق الموالاة كاملة ، ويكون عليه أيضاً واجبات هذه الموالاة ، وكذلك من آمن بعد ذلك وهاجر وجاهد في سبيل الله .

دلّ على هذا الحكم قول الله تعالى في النص :

﴿ والذين آمنوا من بعدُ وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ﴾ .

الحكم الخامس : أحكام الموالاة العامّة بين المؤمنين ، والتي سبق بيانها ، لا تتعارض مع أولوية الموالاة بين أولي الأرحام من المؤمنين ، فأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ، ومنها أحكام التوارث ، فالأحكام العامة لا تتعارض مع الأحكام الخاصة ، ما دام الخاصّ داخلاً في العام ، فأولوا الأرحام المقصودون هم من المؤمنين أيضاً ، ولكنّ لهم الأولوية في الموالاة، لحقّ الإسلام ولحقّ الرحم .

وقد دلّ على هذا الحكم قول الله تعالى في النصّ :

﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﴾ .

وأبان النصّ أنّ الإخلال بأحكام الموالاة التي فرضها الله ينشأ عنه فتنة في الأرض وفساد كبير .

فالفتنة في الأرض تحصل إذ يرىٰ الكافرون تفرق المؤمنين ، وعدم موالاة بعضهم لبعض ، فيتسلّطون على بعضهم ، فيفتنونهم في دينهم ، فلا يناصرهم إخوانهم المؤمنون ولا يؤوونهم ، فيضعف المفتونون عن المقاومة ، فيتأثرون بالضغوط فيكفرون ، فيحصل فساد كبير .

وفي بيان ذلك قال الله عز وجل في النص :

﴿ إلّا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ﴾ .

وخص الله الفريق الأول بالثناء ، فقال في شأنهم : هم المؤمنون حقاً ، ومنحهم المغفرة ، ووعدهم برزق كريم في الحياة الدنيا ، فقال عزّ وجل في النص :

﴿ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آوَوْا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ .

* * *

٣ ـ ثم أنزل الله عز وجل خطاباً للمؤمنين بعد أحداث معركة أحد ، قوله في سورة (آل عمران ٣) :

﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إنْ كنتم مؤمنين (١٣٩) إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله ، وتلك الأيّام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحبّ الظالمين (١٤٠) وليمحّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين (١٤١) أم حَسبتُم أنْ تدخلوا الجنة ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصّابرين (١٤٢) ﴾

قَرْح : أي جراح .

نداولها بين الناس : أي نجعلها إقبالاً وإدباراً ، ونعمة ومصيبة ونصراً وهزيمة ، فحكمة امتحان الناس تقتضي ذلك ، **ولولاه لما كان للارادات الحرّة خيار في الإيمان والكفر ، والطاعة والمعصية ، ولكانت قوانين الجزاء المعجل ـ لو كانت حتمية ـ كقوانين طبائع الأشياء لا يخالفها ولا يعصيها من يتعامل معها ، لكنّ الله عزّ وجلّ قد شاء أن يأخذ الامتحان مداه الصحيح ، فستر جزاءه بالتداول بين الناس ، كما ستر مقاديره بالأسباب ، لتكون الاستقامة ثمرة الإيمان بالغيب ، الذي يدلّ عليه برهانُ العقل ، لا برهان الحسّ .**

وليعلم الله الذين آمنوا : أي فصدقوا جهاداً وصبراً ، وليعلم أيضاً ضعفاء الإيمان والمنافقين . فالبلايا كواشف .

ويتّخذ منكم شهداء : أي وليكرم فئة منكم بالشهادة ، ليمنحها عنده كرامة الشهداء ، ما دامت أعمارهم قد انتهت ، وآجالهم قد حلّت ، فَلأَنْ يموتوا شهداء خير لهم .

وليمحّص الله الذين آمنوا : التمحيص التنقية والتخليص من العوالق الضارّة وكلّ ما لا نفع فيه ، فإزالة وَبَر الحبل حتى يكون أملس ناعماً تمحيص ، وإزالة ما في نفس المؤمن من عوالق تميل إلى الدنيا وزينتها وغنائمها تمحيص ، وإزالة ما في القلوب من شبهات تمحيص ، وإزالة آثار الذنوب تمحيص أيضاً .

فالمصائب تمحّص المؤمن ، لكنّها للكافر الذي مرد على الكفر والعناد ماحقة ، ولذلك قال تعالى ﴿ ويمحق الكافرين ﴾ .

أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يعلم الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين : أي بل أظننتم أنّ دخول المؤمنين في أيّة معركة مع الكافرين كافٍ لمنحهم النصر ، وفيهم المؤمن الصادق ، وفيهم ضعيف الإيمان ، وقد يوجد بينهم منافقون ، وفيهم المجاهدون الصادقون وضعفاء الجهاد ، وفيهم الصابرون والذين لا صبر عندهم ، وهم على درجات متفاضلات ؟؟

أفيصحّ أن تمرّ المعركة دون كشف الدرجات ، وتسجيل أحوال السابقين والمقصّرين ، بظواهر مادّية مشهودة ، وأن يحاسب الجميع حساباً واحداً ؟

إن هذه الأمور المقصودة من الامتحان لا تتحقق إلّا بضواغط الامتحان بالمصائب ، حتى مستوى مصيبة هزيمة المؤمنين في معاركهم الحربية مع

الكافرين ، ولكنّ العاقبة للمؤمنين حقّاً .

فالجهاد في هذا النصّ يبرز فيه التركيز على الجهاد في معارك القتال .

* * *

٤ ـ ثم أنزل الله عز وجل أوائل سورة (الممتحنة ٦٠) بمناسبة ما فعل حاطب بن أبي بلتعة ، إذْ أرسل كتاباً مع امرأة لقريش يعلمهم فيه بعزم الرسول صلى الله عليه وسلم على فتح مكة ، وأعلم الله رسوله بالأمر ، فبعث الرسول من أدرك المرأة ، وأخذ منها الكتاب ، واستدعى الرسول حاطباً وسأله ، ثم عفا عنه لسابقته في الاسلام ، ولأنه كان من أهل بدر . فقال تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء ، تُلقون إليهم بالمودّة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحقّ ، يخرجون الرسول وإيّاكم أن تؤمنوا بالله ربّكم ، إنْ كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي ، تُسِرُّون إليهم بالمودّة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضلّ سواءَ السبيل (١) ﴾ .

تلقون إليهم بالمودة : لقد كان ما فعله حاطب تودُّداً منه لكبراء قريش من أجل أهله ورحمه في مكة ، الذين ليس لهم فيها عزوة ، وقد أصابه من أجلهم الضعف البشري فسقط في معصيته هذه ، ولم يكن ذلك منه حبّاً للكافرين ، ولذلك جاء التعبير : ﴿ تلقون إليهم بالمودّة ﴾ .

إنْ كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي : أي إن كنتم خرجتم يوم خرجتم مهاجرين فراراً بدينكم من اضطهاد مشركي مكة لكم ، جهاداً في سبيل الله .

فوصف الله الهجرة من البلد ابتغاء مرضاة الله جهاداً في سبيله ، فأكّد

هذا النصّ المدنيّ مضمون جهاد الهجرة في سبيل الله .

واعتبر هذا النصّ الكتابة للكافرين بما يضرّ مصلحة جماعة المسلمين موالاة لأعداء الله ، إذْ قال : ﴿ لا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودّة ﴾ وكان أمر حاطب أن كتب كتاباً وأراد أن يصل إلى المشركين وهم أعداء الله .

فالإسرار بالمودّة من الموالاة .

* * *

٥ ـ وأنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (النساء ٤) :

﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلًّا وعد الله الحسنى . وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً(٩٥) دَرَجاتٍ منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً (٩٦) إنّ الذين توفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا : فيم كنتم ؟ . قالوا : كنّا مستضعفين في الأرض . قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنّم وساءت مصيراً (٩٧) إلاّ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً (٩٨) فأولئك عَسىٰ الله أن يعْفُوَ عنهم ، وكان الله عَفُوّاً غفوراً (٩٩) ومن يهاجر في سبيل الله يَجدْ في الأرض مُرَاغَماً كثيراً وسعة . ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يُدْركه الموتُ فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفوراً رحيماً (١٠٠ ﴾ .

غير أولي الضرر : أي غير أولي الأعذار الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ، ولا يقدرون على النهوض للجهاد .

يجد في الأرض مُرَاغَماً كثيراً وسعة : أي مُهاجَراً يهاجر إليه ومكاناً يتحوّل إليه ، ويقيم فيه ، عوضاً عن موطنه الذي منع فيه من أن يكون حُرّاً في دينه ، فمن هاجر في سبيل الله من وطنه ومَسْكنِهِ وماله ، وجد في الأرض مكاناً آمناً مُحَصّناً مَحْميّاً ، ووجد مُهَاجَراً يهاجر إليه .

يقال لغة : راغم الرجل قَوْمَه ، إذا نبذهم وهجرهم ، وأصل المادّة من محاولة كلّ أن يرغم أنف صاحبه ويُكرهه ، وأعجزهما يَفرُّ ويهاجر ، فيُرْغِم أنف نِدّه بالهرب .

فالمهاجر حين يُهاجر عن البلد التي فيها من يُريد إرْغامه على الكفر ، هو « مُرَاغِم » بصيغة اسم الفاعل وهو يحاول أن يغلب أنداده بالهرب والمهاجرة ، فالمكان الذي يُهاجر إليه ويُراغِمُ أندادهُ فارّاً إليه يُسَمَّىٰ « مُرَاغَماً » كما يُسَمَّىٰ « مُهاجراً » .

فبدل وطنه يَجِدُ مُرَاغماً كثيراً . وبدلَ المال يَجِدُ سعَةً في الرزق .

هذا النص تشير الآية الأولى منه كما فهم المفسرون إلى أنّ الجهاد المراد فيها هو الجهاد بالأموال والأنفس ، في قتال الكفّار والإعداد له ، ويؤيّد هذا المعنى الآية السابقة لها من السورة نفسها .

لكنّ الآيات اللاحقة المبنيّة عليها تفيد أن الهجرة في سبيل الله مرادةٌ في عموم الجهاد في سبيل الله في الآية الأولى .

فالهجرة جهاد ، والبقاء في بلد الكفر مع محاولات الإرغام عليه قعود ، والمهاجر قد فضّله الله في الدنيا درجة على القاعد ، أمّا في الآخرة فأجره عظيم ، وهو يمثّل درجاتٍ كثيرات في جنّات النعيم .

وبهذا نلاحظ أنّ الجهاد في المرحلة المدنيّة لم يتخلّ عن معانيه المتعدّدة ، ليختصّ بجهاد القتال .

إنّ القضية قضيّةُ حركيّة عمل بحسب مقتضيات الواقع البشري ، ومقتضيات الدعوة ، وبناء الأمّة الإسلامية ، ثم العمل لإقامة دولة الاسلام .

وهذه تختلف باختلاف الواقع من حين لآخر ، وليس لدى العمل الاسلامي طبعة واحدة يجب التزامها في كلّ ظرف مهما اختلفت الظروف .

هذا هو منطق الدين ، وهذا هو منطق العقل ، وهذا هو منطق التجربة .

* * *

٦ ـ ثم أنزل الله عزّ وجل سورة «محمد» وتسمى سورة (القتال) وتسمى سورة (الذين كفروا) وما جاء فيها من جهاد يبرز فيه الجهاد بالقتال ، وحركية القتال في هذه السورة ، تدلُّ على وصول المسلمين في هذه المرحلة إلى مستوى الفريق الأعلى ، الذي ليس من شأنه أن يضعف ، أو يصيبه الوهن ، فيكون البادىء بالدعوة إلى السّلم ، فيعطيَ عدوّه فرصة إملاء شروطه المهينة ، ولكن عليهم أن يصبروا ويصابروا ، فإذا فعلوا ذلك ، أمدّهم الله بمعونته ، وجعلهم الظافرين العالين على عدُوّهم في آخر الأمر .

والآية التي فيها ذكر الجهاد من هذه السورة ، هي قول الله عزّ وجلّ :

﴿ ولنبلونّكم حتّى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلُوَ أخباركم ﴾ (٣١) .

أي : وَلَيَمْتَحَنَنَّ الله المسلمين حتى يكشف المجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيله ، ويكشف الصابرين منهم . ويميّزهم عن غيرهم بفضل الجهاد والصبر ، وبكشف هؤلاء وتمييزهم تنكشف أيضاً أحوال المتخاذلين : وأحوال البخلاء الذين لا ينفقون في سبيل الله ، وأحوال المعوّقين والمنافقين .

وَنَبْلُوَ أخباركم : أي ونكشف أخباركم ، وأخبارُ الناس هي الأحاديث

والأقوال التي تبيّن ما عملوا وما كسبوا من فعل أو قول ظاهر أو خفي .

وقد تتبَّع الله الجماعة الإسلامية في عهد التنزيل ، فتناول كلّ حادثة لهم وموقعة ذات شأن . فكشف حال المؤمنين الصادقين ، وأحوال ضعفاء الإيمان ، وأحوال المتخاذلين ، وأحوال العصاة ، وكشف أحاديث النفوس والنيات ، وكشف المنافقين ، فمنها ما أنزله في القرآن صريحاً واضحاً ، ومنها ما كنّى عنه كناية ، أو المح إليه إلماحاً ، أو ذكره تعريضاً ، وكلّ ذلك من كشف الأخبار .

والله عزّ وجلّ في تربيته للأمّة الإسلامية القدوة ، لم يجامل منها أحداً ، لأنّ في متابعة كشف الأخبار بعد الأحداث تأصيلاً للحقّ ، وإبرازاً وإيضاحاً للعبرة ، ورسماً لطريق المستقبل ، فما لم تكشف أخبار الأحداث ،وما لم يُمَيَّزْ الصواب والخطأ فيها ، والاستقامة والانحراف ، فإنّ الأخطاء والانحرافات ستتكرّر ، وتمرّ الأحداث دون أن تستفاد منها العظات .

* * *

٧ ـ ثم انزل الله عزّ وجل قوله في سورة (الحج ٢٢) :

﴿ وجاهدوا في الله حقّ جهاده . هو اجتبٰكم وما جعل عليكم في الدين من حرج . ملّة أبيكم إبراهيم . هو سمّاكم المسلمين من قبل . وفي هذا . ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس . فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله ، هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير (٧٨) ﴾ .

من الظاهر أنّ الجهاد في هذه الآية يبرز فيه بوضوح جهاد الدعوة ، لا جهاد القتال .

فالاجتباء للأمّة الاسلامية هو اجتباء لتبليغ رسالة الرسول صلى الله عليه

وسلم ، كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم اجتباه الله لتبليغ رسالته للناس . وإيصالها للناس أجمعين يكون عن طريق من آمن برسالته ، وهم الدّعاة من الأمّة الإسلامية .

ويوضح هذه الدلالة قول الله تعالى في الآية : ﴿ ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾ .

فالرسول يشهد على من بلغه من أمته ما أنزل الله عليه وأمره بتبليغه ، وهؤلاء يشهدون على من بلّغوا من الناس ، وهكذا تتتابع سلسلة التبليغ ، ومع كلّ تبليغ شهادة يشهد بها مَنْ بلّغ يوم الحساب على من بُلِّغَ من الناس .

فالآية هنا تبيّن الوظيفة الأولى والأساسية للأمة الإسلامية بين الأمم ، وهي وظيفة تبليغ دين الله والدعوة إليه .

* * *

٨ ـ ثم أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (الحجرات ٤٩) :

﴿ قالت الأعراب : آمنّا ، قل : لم تؤمنوا ولكن قولوا : أَسْلَمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم . وإنْ تطيعوا الله ورسوله لَا يَلِتَكُم من أعمالكم شيئاً إنّ الله غفورٌ رحيم (١٤) إنّما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثمّ لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله . أولئك هم الصادقون (١٥) ﴾ .

فالجهاد الذي يدلّ على الإيمان الصادق والذي يظهر أنه هو المراد في هذا النصّ ، هو الجهاد الشامل لكلِّ أنواع الجهاد ، الذي فيه بذل الجهد الشاقّ على الأنفس ، ومنه مجاهدة النفس وأهوائها وشهواتها ، لاقتحام عقباتها ، ومنه جهاد الدعوة إلى الله ، ومنه جهاد الانفاق في سبيل الله ، للدعوة وللقتال ، ومنه جهاد الإعداد للدفاع والحرب ، ومنه جهاد القتال في

سبيل الله وهو ذروة سنامه ، ومعلوم أنّ قيمة ذروة السنام شرطها سلامة سائر أعضاء الناقة أو الجمل ، وتوافر القوى اللازمة لها .

* * *

٩ ـ ثم أنزل الله عزّ وجلّ قوله لرسوله في سورة (التحريم ٦٦) :

﴿ يا أيّها النبيّ جاهد الكفّار والمنافقين واغلُظْ عليهم ومأواهم جهنّم وبئس المصير (٩) ﴾ .

لقد جمع الله في هذه الآية الكفّار والمنافقين ، وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يجاهدهم جميعاً ، ومعلوم أنّ الرسول لم يؤمر بمجاهدة المنافقين بالقتال ، فدلّ هذا على أنّ المجاهدة المرادة هنا هي المجاهدة بوسائل الدعوة المختلفة .

ويظهر أن المرحلة في هذا الدور قد تجاوزت مراحل القول اللّين ، والملاطفة ، والمخاشنة المتوسطة ، والمجادلة بالحجج والبراهين ، واستخدام شيء من العنف الكلامي ، واقتضى الارتقاء في الأسلوب إلى الهجوم بالقول الغليظ على تصرفاتهم السيئة ، وعلى قبائحهم الخلقية والسلوكية ، وعلى انحرافاتهم الفكرية ، وعلى الباطل الذي يكابرون في الإصرار عليه .

* * *

٩ ـ ثم أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (الصف ٦١) :

﴿ إنّ الله يحبّ الذين يقاتلون في سبيله صفّاً كأنّهم بنيان مرصوص (٤) ﴾ .

وقال فيها أيضاً بشأن أعداء دين الله :

﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمّ نورة ولو كره الكافرون (٨) هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون (٩) يا أيّها الذين آمنوا ، هل أدلّكُم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم (١٠) تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون (١١) يغفر لكم ذنوبكم ويدخلْكم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيّبة في جنّات عدنٍ ذلك الفوز العظيم (١٢) وأخرى تُحبّونها نصرٌ من الله وفتح قريب وبشّر المؤمنين (١٣) ﴾ .

في هذا النصّ يبرز من عناصر الجهاد في سبيل الله عنصر الجهاد بالقتال، والإعداد لهُ الذي يستدعي بذل المال اللازم له .

* * *

١٠ ـ ثم أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (المائدة ٥) :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون (٣٥) إنّ الذين كفروا لو أنّ لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تُقُبّل منهم ولهم عذاب أليم (٣٦) يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم (٣٧) ﴾ .

لدى التدبّر في هذا النصّ نلاحظ أنّ الجهاد المراد فيه هو جهاد النفس ، بفعل الصالحات ، وترك السيئات ، والاستزادة من الخيرات الباطنة والظاهرة التي ترضي الله تعالى .

والخطوات اللازمة للتزوّد بالزاد العظيم للآخرة تبدأ بالتقوى ، وتكون بالخوف من عقاب الله ونقمته وسخطه ، والتقوى تدفع المتقي لاتخاذ الوسيلة التي تقيه ، والوسيلة الواقية هي العمل الصالح ، ويكون باجتناب ما نهى الله عنه ، وفعل ما أمر الله به ، وتلك هي الخطوة الثانية . لكنّ ابتغاء هذه الوسيلة

محفوف بالمكاره ، وهذه المكـاره تظهـر بكبح النفس عن أهـوائها وشهـواتها ونزعاتها ونزغاتها ، وبإلزامها أن تتحمّل المشقات وتجتاز العقبـات اقتحامـاً ، وذلك لا يتمّ إلّا بالمجاهدة. فالمجاهـدة للنفس هي الخطوة لتحقيق الـوسيلة المبتغاة ، الكفيلة بتحقيق الوقاية المنشودة .

وهكذا يظهر التسلسل المنطقي بين العناصر :
فالإيمان بالله واليوم الآخر من شأنه تحريكُ محور الخوف من الله .
والخوفُ يولّدُ الرغبةَ الصادقة باتقاء المخوف منه .
والرغبة باتقاء المخوف منه تولّد إرادة اتّخاذ الوسيلة الواقية .
وتحقيق المراد هذا لا يتم إلّا بمجاهدة النفس في سبيل الله .
فمن فعل ذلك أصاب فلاحاً بتوفيق الله ورحمته .

وهكذا جاء النصّ مرتّباً ترتيباً منطقيّاً بديعاً : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، اتقوا الله ، وابتغوا إليه الوسيلة ، وجاهدوا في سبيله ، لعلكم تفلحون ﴾ .

* * *

١١ - ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة ٩) عشـر آيات فيهـا ذكر الجهاد ، وهي آيات يبرز في معظمهـا أنّ المراد التـوجيه للجهـاد بالقتـال في سبيل الله والإعداد له ، مع عدم توقف أنواع الجهاد والأخرى ، فقد جـاء في هذه السورة إعادة ما جاء في سورة (التحريم ٦٦) وهو قول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة ٩) :

﴿ يا أيّها النبي جـاهد الكفـار والمنافقين واغلظ عليهم ومـأواهم جهنّم وبئس المصير (٧٣ ﴾ .

ليستفاد أنّ تعاظم حملات الجهاد بالقتال لا تلغي ولا توقف أنواع جهاد الدعوة .

وجاء فيها آيات عـامّة تشمـل كلّ أنـواع جهاد النفس ، وجهـاد الأعداء بوسائل الدعوة ، وجهاد الأعداء بوسيلة القتال في سبيل الله .

وسورة (التوبة) لم ينزل بعدها من السور إلا سورة (النصر) فهما آخر السور التي نزلت من القرآن .

***

وهكذا دلّت نصوص الجهاد في سبيل الله في المرحلة المدنيـة ، وبعد نزول قول الله عزّ وجلّ : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم ﴾ على أنها ذات شمول واستيعاب توجّه حيناً للجهاد بالقتال ، وتوجهّ حيناً آخر لجهاد الدعوة ، وحيناً لجهاد النفس بالتزام منهج الله في السلوك الظاهر والباطن .

فالتوجيه ذو مرونة تلائم الوضع ومقتضياته ، وليس كالقطار الذي لا يسير إلّا على سكّة حديدية ثابتة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

***